

بقائہ فی الإجماع وظل الحال علی ذلك أيضاً - ولكن علی شئ من الضيق - شيئاً فشيئاً حتى اكتسحت العالم الإسلامي موجة المغول التي قضت علی تلك الامبراطورية وأتت بنیانها من القواعد.

وفي الحق لم يكن مجئ المغول لیعني قيام دولة وذهاب أخرى فحسب، ولكنه كان فی الواقع صراعاً بين نوعين من التفكير لم یعهد لهما اجتماع ولا تقارب من قبل، فللغول قانونهم، ولهم نظامهم، ولهم شریعتهم، إلى غير ذلك مما لا نريد الاطالة فیہ فمرجه كتب التاريخ التي عنيت بهذه الناحية، وللمسلمين أيضاً طرائقهم فی التفكير، وشریعتهم، وسنتهم، وفقهم، ولكن مجئ المغول قد عنى من الناحية السياسية أن ينقل عبء الدفاع عن الإسلام وتقالیده ومیراثه إلى مصر. ذلك أنه لم يكن ثمت فی أي بلد من البلاد الإسلامية - وقد نخر فی عظامها جميعاً السوس - دولة أو دويلة أو إقليم ينهض للقيام بهذا العبء غير مصر فكان من الطبيعي أن یولي العالم الإسلامي وجهه شطرها لتقف سداً ضد ذلك السيل الجارف الذي لم یبق فی طریقہ علماً، ولم یقف فی طریق جبروته سلطان، بل اكتسح كل ما كان لهذه الدول الضعیفة من أثر وحاول أن یعفی علی رقیها ومدنیتها، ولم یكذب الممالیکُ أو لم تكذب مصرُ ما رجاء العالم وما شامه فیها من مخایل فاضطلعوا بالعبء صابرين. وأدوا رسالة الإسلام أمام ذلك السيل الجارف، واستطاعت مصر بعد بغداد ومكة والحجاز أن تحمل مشعل الثقافة الإسلامية فی شتى نواحيها، وكان من الطبيعي أن یتلو ذلك ارتحال الجمهرة الغفيرة من العلماء إلى مصر لیعيشوا فی كنف هذه الدولة التي أبلت البلاء الحسن فی الدفاع عن الإسلام وكان منهم المحدثون والمفسرون واللغویون والنسّابون والأطباء والأخباريون وكان منهم بعد هذا وقبل هذا الفقهاء ویحسن أن ننبه القارئ إلى أننا حين نتكلم علی مصر یحسن أن یطبق القول علی الشام والأقالیم التي دانت بالخضوع للممالیک واستظلموا بسلطانهم. تلك كلمة عابرة قدمناها بین یدی الموضوع لیكون القارئ علی علم بمقدمات هذه الظروف التي سنعرض لها ونتحدث علی ضوئها عن الفقه والفقهاء.